الحب في الله

موضوع المحبة تلخصه هذه الحكاية القصيرة :

« مر حكيم على رجل يبكي على قبر ، فسأله عن سبب بكائه ، فقال : إن لي حبيباً قد مات ، فقال له الحكيم : لقد ظلمت نفسك بحب حبيب يموت ، فلو أحببت حبيباً لا يموت ، لما تعذبت بفراقه » .

المحبة من أخص خصائص الإنسان ، ولكن البطولة ليست في أن تحب ، ولكن البطولة كل البطولة في أن تعرف من ينبغي أن تحب .

في الإنسان عقل يدرك ، وقلب يحب ، وجسم يتحرك ، والإنسان مفطور على حب الكمال ، وحب الجمال ، وحب النوال ، (أي العطاء) .

وحينما يدرك العقل ، من خلال التفكر الدقيق في خلق السماوات والأرض ، أن الكون مسخر للإنسان تسخير تعريف وتكريم .

وحينما ينظر الإنسان في الحوادث التي هي أفعال الله ، فيرى أنها تنطق بالعدل والرحمة والإحسان .

وحينما يفهم الإنسان الفهم القويم للنقل الصحيح ، حيث أخبر الله من خلاله أن الإنسان هو المخلوق الأول ، خلقه في أحسن تقويم ، وكرمه أعظم تكريم ، خلقه لجنة عرضها السماوات والأرض ، وأسبغ عليه نعمه ، ظاهرة وباطنة .

حينما يتفكر الإنسان في خلق الله ، وينظر في أفعال الله ، ويتدبر كلام الله ، يقوده عقله الذي هو أداته لإدراك الحقائق ، وتقوده فطرته التي جبلت على حب من أحسن إليها ، إلى محبة الله ذي الجلال والإكرام ، لذلك يعد **أرجح الناس عقلاً أشدهم لله حباً** ، وقد ورد أنه « **لا إيمان لمن لا محبة له** » .

إن الله جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه ، جعل هذه القلوب أوعية ، فخيرها أوعاها للخير والرشاد ، وشرها أوعاها للغي والفساد ، وسلط عليها الهوى ، لتنال بمخالفته جنة المأوى ، وهيأها لأمر عظيم ، وأعدها لجنة ؛ فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، من النعيم المقيم .

واقتضت حكمته ، جل شأنه ، ألاّ تصل النفس إليها إلا من طريق المكاره ، والنصب ، ولا تعبر إليها إلا على جسر ، من المشقة والتعب ، **إن عمل الجنة حزن بربوة ، وإن عمل النار سهل بسهوة** .

المحبة هي قوت القلوب ، وغذاء الأرواح ، وهي الحياة التي من حرمها فهو في جملة الأموات ، وهي النور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات ، وهي الشفاء الذي من عدمه حلت به الأسقام ، وهي اللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه أنس بن مالك ، يقول :

« **ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر ـ بعد إذ أنقذه الله منه ـ كما يكره أن يلقى في النار** »[1] .

إذا عرف الإنسان ربه أحبه ، وإذا أحبه خطب ودَّه ، واستقام على أمره ، وعمل الصالحات ابتغاء وجهه ، عندئذ يجد حلاوة الإيمان ، بعد أن ذاق جحيم الكفران ، يقول الله تعالى ، فيما رواه النبي ، ﷺ ، عن ربه في حديث صحيح :

« **لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه** »[2] .

المحبة معقد النسبة بين الرب والعبد ، فإنه لا نسبة بين الله والعبد إلا محض العبودية من العبد ، ومحض الربوبية من الرب ،

---

(١) رواه البخاري ١/٥٦ـ٥١ ومسلم ٢٣ .

(٢) أخرجه الإمام البخاري .

والمحبة هي معقد هذه النسبة ، وهي روح الإيمان والأعمال ، وقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة ، إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب ، فالمرء مع من أحب ، والمحبة هي الميل الدائم بالقلب الهائم ، وإيثار المحبوب على جميع المصحوب ، وموافقة المحبوب في المشهد والمغيب ، وهو استكثار القليل من التقصير ، واستقلال الكثير من الطاعة ، وهي أن تهب كلك لمن أحببت ، فلا يبقى لك منه شيء ، وهي أن تهب إرادتك ، وعزمك ، وأفعالك ، ونفسك ، ومالك ، ووقتك لمن تحب ، وتجعلها حبساً في مرضاته ، ومحابّه .

وقد جرت مسألة في المحبة ، بمكة المكرمة ، أيام الموسم ، فتكلم الشيوخ جميعاً وكان فيهم الجنيد ، كان الجنيد أصغرهم سناً ، قالوا : هاتِ ماعندك يا جنيد ، فقال : عبد ذاهب عن نفسه ، متصل بذكر ربه قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، فإذا تكلم فبالله ، وإن نطق فعن الله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فهو مع الله ، فهو بالله ، ولله ، ومع الله .

آية كريمة في القرآن الكريم تؤكد هذه المحبة ، قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

الذي أجمع عليه العارفون ، أن الله ، جل جلاله ، يحبهم ،

وأنهم يحبونه ، فمحبة الرب لرسله وأنبيائه ولأوليائه صفة زائدة على رحمته ، وإحسانه ، وعطائه ، بل إن رحمته ، وإحسانه ، وعطاءه أثر لمحبته ، وموجب لها ، فإنه لما أحبهم كان نصيبهم من رحمته وإحسانه ، وبرّه أتمّ نصيب ، ومحبة العبد لربه فوق كل محبة ، ولانسبة بينها وبين سائر المحابِّ ، وهي حقيقة (لا إله إلا الله) ، ومن **علامات** المحبين لربهم أنهم أذلة أعزة ، أذلة على المؤمنين ، أي رحماء بهم ، مشفقون عليهم ، فهم للمؤمنين كالوالد لولده ، أعزة على الكافرين ، أي هم أشداء عليهم ، لا يداهنونهم ، ولا يرهبونهم ، **والعلامة الثانية** أنهم يجاهدون في سبيل الله ، يجاهدون أنفسهم ويجاهدون بألسنتهم ، وبأموالهم ، وبأيديهم ، **والعلامة الثالثة** أنهم لا تأخذهم بالله لومة لائم ، لأن الله معهم ، وإذا كان الله معهم ، فمن يستطيع أن يكون عليهم ؟! قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

آية ثانية تؤكد هذه المحبة ، قال تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

لقد أخبر الله تعالى ، من خلال هذه الآية الكريمة ، أنه من أحب من دون الله شيئاً ، كما ينبغي أن يحب الله ، فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً ، إن هذا الندّ ندّ في المحبة والولاء ، لا ند في الخلق والإنشاء ، بل إن أكثر أهل الأرض ، اتخذوا أنداداً من دون الله في الحب ، والتعظيم ، والذين آمنوا أشد حباً لله ، أي إن المؤمنين أشد حباً لله من حب المشركين لأندادهم ، التي يحبونها ويعظمونها ، ولو ترى هؤلاء المشركين في المحبة والتعظيم لأندادهم وآلهتهم ، لو تراهم ، وهم في النار ، وأندادهم معهم ، يقولون :

﴿ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء : ٩٦ـ ٩٨] .

بل إن هؤلاء المشركين في المحبة والتعظيم ، يحبون أندادهم وآلهتهم حباً ، من جنس حبّ المؤمنين لله ، وهو محبة ممزوجة بذل ، وتعظيم ، وتقديس يحملهم على عبادتهم بالدعاء ، وعلى طاعتهم فيما يشرعون لهم .

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

[الشورى : ٢١] .

لما كثر المدعون للمحبة ، طولبوا بإقامة البينة ، على صحة الدعوى ، فلو يُعطى الناس بدعواهم ، لادعى الخلي حرقة الشجي ، فقيل لا تقبل هذه الدعوى إلا ببينة ، قال تعالى :

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

فتأخر الخلق كلهم ، وثبت أتباع الحبيب في أفعاله ، وأقواله ، وأخلاقه .

ثم طولبوا بتزكية البينة ، إذ إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم ، فهلموا إلى بيعة .

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١١١] .

فلما رأوا عظمة الثمن ، وجلال المشتري ، ورأوا أن من أعظم الغبن أن يبيعوا أنفسهم وأموالهم لغير الله ، بثمن بخس ، فعقدوا معه بيعة الرضوان بالتراضي من غير ثبوت خيار ، فلما تمّ العقد ، وسلموا المبيع ، قيل لهم : مذ صارت نفوسكم وأموالكم لنا ، رددناها عليكم أوفر ما كانت ، وأضعافها معها .

إذا غرست شجرة المحبة بالقلب ، وسقيت بماء الإخلاص ، ومتابعة الحبيب ، أثمرت أنواع الثمار ، وآتت أكلها كل حين بإذن ربها ، أصلها ثابت في قرار القلب ، وفرعها في السماء .

من **الأسباب** الجالبة للمحبة ، والموجبة لها ، **قراءة القرآن**

بالتفهم والتدبر لمعانيه ، وما أريد به ، والتقرب إلى الله **بالنوافل** بعد الفرائض ، فإنها توصل إلى درجة المحبوبية بعد المحبة ، ودوام **ذكر الله** على كل حال ، باللسان ، والقلب ، فنصيب العبد من المحبوبية على قدر نصيبه من الذكر ، **وإيثار محاب الله** على محاب العبد عند غلبات الهوى ، والتسنم إلى محابّه وإن صعب المرتقى .

ومن الأسباب الجالبة للمحبة ، **مطالعة القلب لأسماء الله** ، وصفاته ، ومعرفتها ، ومشاهدة آثارها ، والتقلب في رياض هذه المعرفة ، فمن عرف الله بأسمائه ، وصفاته أحبه لا محالة ، ومشاهدة برّه ، وإحسانه ، وآلائه ، ونعمه الظاهرة والباطنة ، فإنها داعية إلى المحبة ، **والخلوة مع الله** ، ومناجاته ، وتلاوة كلامه ، والتأدب بأدب العبودية بين يديه ، **ومجالسة المحبين الصادقين** ، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم ، كما تنتقى أطايب الثمر ، **ومباعدة كل سبب** يحول بين القلب والله عز وجل .

إن أقصر طريق ، وأوسع بابٍ إلى أن يكون العبد محبوباً عند الله ، أن يكون على **شاكلة الذين يحبهم الله** ، جل جلاله ، وأن **يبتعد** عن الصفات التي لا يحبها الله في عباده .

فـالله يحـب **الصـابـريـن** ، والله يحـب **التـوابيـن** والله يحـب **المتطهرين** والله يحب **المحسنين** وإن الله يحب **المتوكلين** وإن الله يحب **المقسطين** ويحب **المتقين** .

والله لا يحـب **الظـالميـن** ، ولا يحـب **المعتـديـن** ولا يحـب

المفسدين ولا يحب **المسرفين** ولا يحب **المستكبرين** ولا يحب **الفرحين** (أي في الدنيا) ولا يحب **الكافرين** ولا يحب **الخائنين** ولا يحب من كان **مختالاً فخوراً** والسنة المطهرة طافحة بالنماذج الإيمانية التي يحبها الله .

فالله **يحب** إغاثة اللهفان ، وإتقان العمل ، والعدل بين الأولاد ، ولو في القبل ، ويحب أن يرى عبده تعباً في طلب الحلال ، ويحب حفظ الودّ القديم ، ويحب الرفق في الأمر كله ، ويحب سمح البيع ، سمح الشراء ، ويحب السهل الطلق ، ويحب الشاب التائب ، ويحب المؤمن المحترف ، ويحب الفقير المتعفف ، ويحب الغيور ، ويحب القلب الحزين .

وإن الله **يبغض** البخيل ، والسائل الملحف ، والغني الظلوم ، والفاحش البذيء ، والوسخ ، والشعث ، ويبغض البذخين ، الفرحين ، المرحين ، ويبغض كل عالم بالدنيا ، جاهل بالآخرة ، ولا يحب الطلاق ، ولا العقوق ، ولا يحب كل فاحش متفحش .

وأحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل ، وإدخال السرور على المسلم ، والحب في الله ، والبغض في الله ، وحفظ اللسان ، والصلاة لوقتها ، وإطعام الطعام ، وأحب البيوت إلى الله بيت فيه يتيم مكرم ، وأحب البلاد إلى الله مساجدها ، وأحب الحديث إلى الله أصدقه ، وأحب الطعام إلى الله ما كثرت عليه الأيادي ، وأحب العباد إلى الله أنفعهم لعياله ، وأحسنهم خلقاً ، وأبغض الرجال إلى الله الألد الخصم ، ومن كان ثوبه خيراً من عمله ، وأبغض الخليقة إلى الله الكذابون .

وقد ورد عن رسول الله ﷺ :

« ما من شيء أحب إلى الله تعالى من شاب تائب ، وما من شيء أبغض إلى الله من شيخ مقيم على معاصيه » .

وقد ورد : أُحب ثلاثاً وحبي لثلاث أشد ؛ أحب الطائعين وحبي للشاب الطائع أشد ، أحب الكرماء وحبي للفقير الكريم أشد ، وأحب المتواضعين وحبي للغني المتواضع أشد ، وأبغض ثلاثاً وبغضي لثلاثٍ أشد ؛ أبغض العصاة وبغضي للشيخ العاصي أشد ، وأبغض البخلاء وبغضي للغني البخيل أشد ، وأبغض المتكبرين وبغضي للفقير المتكبر أشد .

هناك موضوع بالغ الدقة والخطورة ، هناك فرق كبير وخطير ، بين **الحب في الله** وبين **الحب مع الله** ، فالحب في الله هو من كمال الإيمان ، بينما الحب مع الله هو عين الشرك ، إذا تمكنت محبة الله في قلب العبد أوجبت هذه المحبة أن يحب العبد ما يحب الرب ، عندئذ يحب العبد رسل الله جميعاً ، وأنبياءه جميعاً ، وأولياءه ، والدعاة إليه ، وعامة المؤمنين ، ويبغض تبعاً لذلك ما يبغض الله عز وجل من العصاة ، والفجار ، والكفار .

وعلامة الحب في الله ،والبغض في الله ، أن لا ينقلب البغض لبغيض الله حباً إذا أحسن إليك ، وقضى حوائجك ، وأن لا ينقلب الحب لحبيب الله بغضاً إذا وصل إليك من جهته

ما تكرهه ، إما خطأً ، أو عمداً ، مطيعاً لله فيه ، أو متأولاً ، أو مجتهداً ، أو باغياً .

الدين كله يدور على أربع قواعد ، **حب وبغض** ، ويترتب عليهما **فعل وترك** ، فمن كان حبه ، وبغضه ، وفعله ، وتركه ، لله فقد استكمل الإيمان ، هذا هو الحب في الله ، وأما **الحب مع الله** ؛ فنوعان ، نوع يقدح في أصل التوحيد ، وهو شرك لا محالة ، ونوع يقدح في كمال الإخلاص ، ولا يخرج من الإسلام .

النوع الأول : حب كما يحب المشركون أوثانهم ، وأصنامهم وآلهتهم التي يعبدونها من دون الله ، محبة تأله وموالاة ، يتبعها خوف ورجاء ، ودعاء ، وهذه المحبة هي عين الشرك الذي لا يغفره الله .

والنوع الثاني : محبة ما زينه الله تعالى في النفوس من النساء ، والبنين ، والقناطير المقنطرة من الذهب الفضة ، والخيل المسومة ، والأنعام ، والحرث ، فيحبها محبة شهوة ، كالجائع للطعام ، والظمآن للماء ، هذه المحبة **ثلاثة** أنواع ، إن أحبها لله توصلاً إليه بها ، واستعانةً بها على طاعته ، ومرضاته أثيب عليها ، يقول أحد الأصحاب الكرام : حبذا المال ، أصون به عرضي ، وأتقرب به إلى ربي .

إن أحب هذه الأشياء توصلاً بها إلى الله وابتغاء مرضاته أثيب عليها ، وإن أحبها لموافقة طبعه وهواه ، ولم يؤثرها على

ما يحبه الله ويرضاه ، بل نالها بحكم الميل الطبيعي ، كانت من المباحات ، ولم يعاقب عليها ، وإن أحبها وسعى جاهداً لتحصيلها ، والظفر بها ، وقدمها على ما يحب الله ، ويرضاه ، كان ظالماً لنفسه متبعاً لهواه ، فالأولى محبة السابقين ، والثانية محبة المقتصدين ، والثالثة محبة الظالمين .

لو بطلت مسألة المحبة ، لبطلت جميع مقامات الإيمان ، والإحسان ولتعطلت منازل السير إلى الله ، فإنها روح كل مقام ، وكل منزلة وكل عمل ، وإذا خلا منها العمل صار كالميت لا روح فيه ، ونسبتها إلى الأعمال ، كنسبة الإخلاص إليها ، بل هي حقيقة الإخلاص ، بل هي الإسلام نفسه ، إذ إنه الاستسلام بالذل ، والحب ، والطاعة لله ، فمن لا محبة له لا إسلام له ألبتة ، بل هي حقيقة شهادة أن (لا إله إلا الله) ، وإن الإله الذي يؤلهه العباد حباً ، وذلاً ، وخوفاً ، وتذللاً له ، والعقول تحكم بوجوب تقديم محبته على محبة النفس ، والأهل ، والمال ، والولد ، فالعقل ، والفطرة ، والشرع ، والنظر كلها ، تدعو إلى محبته ، سبحانه ، بل إلى توحيده في المحبة ، وإنما جاءت الرسل بتقرير ما في الفطر والعقول ، إن الله لا يحب القلب المشترك ولا العمل المشترك ، العمل المشترك لا يقبله ، والقلب المشترك لا يُقبل عليه .

قال بعض العلماء : **عشرة أشياء ضائعة** ، لا ينتفع بها ، **قلب** فارغ من محبة الله ، والشوق إليه ، والأنس به ، **ومحبة** لا تتقيد

برضاء الله تعالى وامتثال أمره ، **وعلم** لايعمل به ، **وعمل** لا إخلاص فيه ولا اقتداء ، **وبدن** معطل من طاعة الله ، وخدمة عباده ، **وفكر** يجول فيما لا ينفع ، **ومال** لا ينفق منه ، فلا يستمتع به جامعه في الدنيا ، ولا يقدمه أمامه في الآخرة ، **ووقت** معطل عن اغتنام برّ وقربة إلى الله عز وجل ، **وخدمة** من لا تقربك خدمته إلى الله ، ولا تعود عليك بصلاح دنياك ، **وخوفك** ورجاؤك لمن ناصيته بيد الله ، وهو أسير في قبضته ، ولا يملك ضراً ، ولا نفعاً ، ولا موتاً ، ولا حياةً ، ولا نشوراً .

* * *

المعرفة تقود إلى الحب ، والحب يقود إلى الطاعة ، والطاعة ثمن الاستخلاف ، والتمكين ، والنصر العزيز المؤزر .

وقد ورد في تاريخ **الطبري** ، الجزء السادس ، في الصفحة الواحدة بعد الخمسمئة ، وفي كتاب **البداية والنهاية** ، الجزء التاسع ، في الصفحة الواحدة والأربعين بعد المئة .

ورد أن **قتيبة بن مسلم** ، رحمه الله تعالى ، توغل في بلاد المشرق فاتحاً ، وبعد أن فتح كاشغر ، ودخل غرب الصين ، كتب إليه إمبراطور **الصين** ؛ أن ابعث إلينا رجلاً من أشراف من معكم ، يخبرنا عنكم ، ونسأله عن دينكم ، فانتخب قتيبة من عسكره ، اثني عشر رجلاً ، لهم جمال ، وأجسام ، وألسن ،

وشعور ، وبأس ، فكلمهم قتيبة وفاطنهم ، (أي امتحن ذكاءهم) فرأى عقولاً ، وجمالاً فأمر لهم بعدة حسنة ، من السلاح ، والمتاع الجيد ، وقد أمّر عليهم **الهبيرة** بن المشمرج ، وكان مفوّهاً ، طليق اللسان ، وقال لهم : سيروا على بركة الله ، وبالله التوفيق ، وإذا دخلتم على ملكهم فأعلموه أني قد حلفت ؛ أن لا أنصرف حتى أطأ بلادهم ، وأجبي خراجهم ، فساروا ، وعليهم الهبيرة ، فلما قدموا إليه ، أرسل إليهم ملك الصين يدعوهم ، فدخلوا عليه ، وقد لبسوا ثياباً بياضاً ، تحتها الغلائل ، ولبسوا النعال ، والأردية ، وتطيبوا ، دخلوا عليه ، وعنده عظماء أهل مملكته ، فجلسوا فلم يكلمهم الملك ، ولا أحد من جلسائه ، فنهضوا وانصرفوا ، وقال الملك لجلسائه : كيف رأيتم هؤلاء ؟ قالوا : رأينا قوماً أشبه بالنساء ، فلما كان الغد ، أرسل إليهم ، فلبسوا الوشي ، وعمائم الخز ، والمطارف ، وغدوا عليه. . . فلما دخلوا ، قيل لهم : ارجعوا ، فقال لأصحابه : كيف رأيتم هذه الهيئة ؟ هذه الهيئة أشبه بهيئة الرجال من تلك الأولى ، فلما كان اليوم الثالث ، أرسل إليهم ، فشدوا عليهم سلاحهم ، ولبسوا البيض والمغافر ، وتقلدوا السيوف والرماح ، وتنكبوا القسي ، وركبوا خيولهم ، وغدوا. . . فقيل لهم : ارجعوا قبل أن يدخلوا عليه ، لِما دخل قلبهم من الخوف ، فقال الملك لأصحابه : كيف ترونهم ؟ قالوا : ما رأينا مثل هؤلاء قط ، فلما أمسى ، أرسل إليهم الملك ؛ أن ابعثوا إلي زعيمكم ، وأفضلكم رجلاً ، فبعثوا إليه الهبيرة ، فقال الملك له حين دخل عليه : قد رأيتم عظيم ملكي ، وأنه ليس أحد يمنعكم مني ، وأنتم في بلادي

بمنزلة البيضة في كفي ، وأنا سائلك عن أمر ، فإن لم تصدقني قتلتكم جميعاً ، قال : سل ، قال : لِم صنعتم ما صنعتم من الزي في اليوم الأول والثاني والثالث ؟ فقال الهبيرة : أما زِينا الأول ، فلباسنا في أهلنا ، وأما زينا في اليوم الثاني ، فإذا أتينا أمراءنا ، وأما زينا في اليوم الثالث ، فزينا لعدونا ، فقال الملك : ما أحسن ما دبرتم دهركم ! ، فانصرفوا إلى صاحبكم قتيبة ، فقولوا له : لينصرف ، فإني عرفت حرصه ، وقلة أصحابه ، وإلا أبعث عليكم من يهلككم ويهلكه ، فقال له هبيرة : كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ، وكيف يكون حريصاً من خلّف الدنيا قادراً عليها ، وغزاك في عقر دارك ، وأما تخويفك إيانا بالقتل ، فإن لنا آجالاً ، إذا حضرت فأكرمها القتل ، فلسنا نكرهه ، ولا نخافه ، قال : فما الذي يرضي صاحبك ؟ قال : إنه حلف أن لا ينصرف ، حتى يطأ أرضكم ، قال : فإنا نخرجه من يمينه ، فنبعث إليه بتراب من أرضنا فيطؤه ، ونبعث إليه بالمال الذي يطلب نظير أمننا ، وحمايتنا ، وهكذا نزل ملك الصين عند مطلب قتيبة ، من دون أن يخوض حرباً ، رهبةً وخوفاً ، قال تعالى :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور : ٥٥] .

وقد يدور في الأذهان سؤال ، لا يخفى على القارىء ، أجاب عنه القرآن ، فقال تعالى :

﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا﴾ [مريم : ٥٩] .

وقد يقول قائل : ما العمل ؟ ويجيب القرآن الكريم :

﴿ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡۘ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال : ١٩] .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد : ١١] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد : ٧] .

* * *